حيـــــاة الانسان

للاستاذ بول جانيت

الاستاذ بالسربون

حياة الانسان منقسمة الى أربعة أطوار : الطفولة والشباب ، والرجولة والشيخوخة . ولطالما اشتد الجدل وما يزال يشتد بين البشر لمعرفة أى هذه الأطوار يكون الانسان فيه أسعد حالا وأهدأ بالا وأشد تفاؤلا ؟ ويلوح لنا أن الناس يجمعون أو يكادون يجمعون على تفضيل الرجولة على الشيخوخة، والشباب على الرجولة، والطفولة على الجميع ، والحق الذى لامراء فيه أن لكل طور من اطوار الحياة لونا من السعادة يناسبه ويلائمه ، ولكل طور نظر الى الحياة مغاير . . وهب أن ليس هناك ماهو أهنأ من الطفولة المرحة فمن منا يود أن يظل طيلة حياته طفلا ؟ فنحن الذين نغبط الأطفال هنيهم ونذكر فى أسى تلك السعادة البريئة الماضية التى تفيأنا ظلالها واحتسينا راحها ونعمنا بزنبقها وآسها أيام كنا أطفالا نرتع ونلعب ، لنرمق فى حزن عميق أولئك التعساء الذين تطول بهم الطفولة الى غير نهاية ، وإن سرورهم نفسه ليحرك فينا عاطفة الرحمة والاشفاق . نحن نرثى لهم لأنهم لما يلمسوا ماهم فيه من بؤس وشقاء ، فهذه السذاجة التى يطول عمرها ، وهذه الغرارة ، وهذه الغباوة ، وهذا الاستخفاف بآلام الغير ليبدو لنا أعظم الآلام . فليست السعادة منحصرة فى قيام لذة أو فى انعدام ألم ، ولكنها فى استغلال القوى التى خص بها الانسان استغلالا مشرفا معقولا . . ! !

يجهل الطفل الحياة جميعها ولاتكاد تنصب رغائبه الا على التافه من الأغراض ، ومع أننا نعجب بهذا الطور وماحواه من سذاجة ومرح وتدلل فنحن لانأسف عليه أسفاً حقيقيا ، ولانرضى عن طواعية واختيار أن نستعيده ثانية . ويحب الشاب من الحياة مايحبه الرجل ، ولكنه لايتبع سبيله، ولا يسلك منهاجه . ومعرفته وآراؤه قريبان من معرفة الرجل وآرائه ، وليس الفرق بينهما عظيما كما نراه بين الطفولة والشباب . وميزة الشاب على الرجل أن رغائبه ماتزال فى نضارتها وقشوبها ، فالمستقبل مفتر له باســـط ذراعيه ، والأمل لابد مالىء جوانب قلبه ، وناشر على أحزانه النادرة طبقة من السرور على أهبة أن تسفر وتتلألأ ، وإذ لاعهد له بعقبات الحياة وتكاليفها ، فهو أبداً سخى وشجاع ، ولما لم يكن قد خدع إلا نادراً كان ناصع الدخيلة ، سليم الطوية، يصدق الرواة ويثق بالظروف ، ولما كان عمله فى المعهد أو المصنع لايتجاوز بضع ساع من النهار كان لديه وقت من الحرية والفراغ طال أو قصر يتسنى له خلاله أن يتذوق لذة الاستقلال قبل أن ينوء به عبء التبعة . . . غير أن من اللذة قد ولى وأدبر وبدأت حياة الجد والكفاح، وحتى فى هذا الوقت لم تكن آراء الشباب إلا قضايا عقل وخلجات نفس ينبغى أن تستحيل الى عقائد وقيود ! كان ميله هوى ، وصداقته مسلاة ، وحبه تلهية من تلاهى الخيال قبل أن يكون حاجة من حاج القلب وضرورة من ضروراته . وكانت علاقاته بالعالم لذة لحظة أو ملال لحظة ، ثم استحالت الى سلاسل وأغلال لايستطيع المرء أن يتحرر منها دون خطر . ثم تتجمع حول الرجل الكامل المنافع والغايات والحاجات والمنافسات . وتحيط به وتنبسط أمامه فلاة بلقع ليس فيها سوى أهراس وعواسج ومهاو ، وقد كان الشاب لايرى فيها إلا سهولا منبسطة تغطيها رياض بها أطيب الزهر وأشهى الثمر ! كل هذا حق ، وهل يمكن أن يقال أكثر من هذا فى مدح الشباب وذم الرجولة ؟ ولكن لم خلق الانسان ؟ خلق ليكون رجلا يكافح ويناضل ، أما السلام فليس من أطوار هذه الحياة ، إن نشدته وجدته أبعد من الفرقدين واعسر من رد أمس الدابر . إن هذه الحياة جهاد ونضال ، وحرى بالرجل أن يكون كالربان فى بحر تحفه الأهوال ، وليس أدعى الى السخرية من شاب فى سن الرجولة أو فى سن الشيخوخة مثل ذلك الشاب الأبدى يدعو الى حزننا ورثائنا ، وليس الذى نرثى له من أجله هو ذلك التناقض المادى والمعنوى ، أو الجسدى والروحى فى الشخص الواحد، ولكن ذلك النقص المعيب والخمول المزرى ، وتلك القوة المعتلة ثم ذلك الوقار الضائع والأهلية المفقودة . . كل هذا ليس إلا ضعفاً هرميا قبل الأوان ، فالطبيعة تثأر لنفسها بشيخوخة مبكرة طافرة مع من لم يعرف كيف يتلقاها ويرحب بها ويتأهب لها وهى تدنو منه فى رفق وتريث واتئاد . . .

يبدئ الشاب الرجل ببهجته ونضارته وجماله، أى يبذه بشىء ليس إلا عرضا زائلا ، وغثا باليا ، وزينة أحرى أن تفاخر بها المرأة . ويبذه الرجل بقوته واحتماله ، وعلمه وحزمه ووقاره . يريد الرجل فيعمل ، وينتوى فينفذ ، ويعد فيصدق ، ويكافح فلا يثنى له عنان ولا تلين له قناة . ويقف الشاب من مسرح الحياة موقف المتفرج بينما يلعب الرجل فوقه دوراً تافها أو عظيما . ولربما تطلب أتفه الأدوار جهداً فوق الذى يتطلبه أعظمها ، فعول أسرة أشق غالبا من تأسيس مملكة . .

يجهل الطفل شئون الحياة ، ولا يكاد يعرف منها كثيرا ولا قليلا ، ويعرفها الشاب أو يعرف منها الكثير فتستهويه وتستميله ، غير أنه لا يساهم فيها ، ولكن الرجل يمتزج بها ويحاول أن يغيرها تحنكه التجارب وتوقره الحوادث ، ويروضه الزمان ويثقفه الجديدان ، وتشحذ قوته العقبات . وتعلى مكانته التبعات ، وتوقظ مشاعره الآلام النبيلة ، والعبرات الصادقة . . . هذا عصر الانتاج المثمر ، والكفاح المجدى ، والعزائم التى تولد من عناصر الضعف قوة ، ومن ظلام اليأس نور أمل . هذا عصر القيادة والزعامة والابتكار ، هذا عصر المجد والنور بل هذا عصر الانسانية الحقيقى ! !

فى الطفولة عذوبة وسحر ، وفى الشباب نضرة وجمال ، ولكن كليهما ليس فيه غناء ، لا لصاحبه ولا لوطنه ولا للانسانية جمعاء ، فالأطفال والشبان يعيشون فى هذه الحياة كلا على الرجل ، فالرجولة وحدها هى التى يؤمل لها أن تبلغ الغاية القصوى ، والمثل الأعلى ، وهى التى يحق لها أن تطمح الى الخلود إن كان لشىء فى هذه الحياة خلود ! !

* * *

أما الشيخوخة فمتى كانت مدعمة بالرزانة والحزم ، ومجردة من الهوى والاثم ، وكان معها توبة من الذنوب وإقلاع عن المعاصى أضحت للذابل طلا وندى ، وللفائت ترجيعاً وصدى ، وما أشبهها بأصيل يوم ربيعى رق وصفا !

ليئس الشيخ المعمر لحظة ماوسع من أحزان وآلام ، وما ابتلى به من أوصاب وأسقام ، وما نزل به من خصاصة ، وما حضره من إملاق ، وما لقى من عنت وإرهاق ، وما صادفه من تعثر وإخفاق ، ولينس مع هذا وقبل هذا أن قناته قد أعوجت ، وأن عظمه قد وهن ، وأن الدهر عاضه من نضارة عوده ذبولا ، ومن سواد عذاره قتيراً ، وإن استطاع فليئس أيضاً أنه متى حان حينه طوى بساط عيشه ، ووافاه حمامه فكحله بمروده . ولفه فى مئزره ، وإنتزعه من بين إبنة لهوابن ، ووالدة وخدن ، وصاحبة وناى ودن ، ليواريه فى حفرة قد ضاقت مساحتها وأحلولكت جوانبها . . . فان فعل ، وحرى به أن يفعل ، فثم قصيدة فيها سحر وجمال ومتاع سوف يخلقها له خياله . . قصيدة تبدأ بألاعيب الطفولة المرحة الطروب يتضوع منها شذا الوداعة والعذوبة والايناس ، ويفيح منها نور السذاجة والبراءة والعفاف ، ويغرد من فوقها البلبل والورقاء والحسون ! ! وتتصل بها آمال الشباب وأمانيه وأنا شيده وأغانيه وتأملاته (١) ونجواه ولياليه (٢) وليلاه ... ثم تعقبها الرجولة بما أخذت من تبعة وإحتمال ،

(١) يشير الكاتب الى تأملات لامرتين

(٢) الليالى هنا للشاعر الفرنسى دى موسيه

الموسيقى فى مصر

للأستاذ محمد كامل حجاج

لاريب أن الموسيقى من أعظم الفنون الجميلة التى أصبحت من الضروريات عند كل الطبقات ، وقد بلغت أوجها عند الأمم الراقية ، وتمشت مع التمدن حتى أصبحت معيار المدنية والرقى

الموسيقى الراقية كالشعر بل هى متممة له ، لأن كثيراً من الحالات النفسية العميقة لا يستطيع الكلام أن يعبر عنها ، وإنى أضرب لك مثلا سهلا :

إذا قرأت أمام أمىٍّ جاهل مرثية من أروع الشعر الجاهلى فهل يظهر عليه أى تأثر ؟

أعد الكرة أمام الرجل نفسه وأسمعه مرثية موسيقية راقية فلا ريب أنها تهزه وتحزنه حتى تقرأ علامات الحزن على وجهه ولربما لا يقوى على ضبط نفسه فيتأوه أو يخونه الدمع إن كان رقيق الشعور .

إن لم تكن الموسيقى واصفة ومصورة لكل ماتقع عليه العين من محاسن الطبيعة ، ومعبرة كالشعر عن اسمى العواطف وأرق الشعور والوجدان ، فأولى بها أن تسمى لغطا وجلبة تصدع الرءوس وتسئم النفوس .

لقد اهتمت مصر بالعلوم والآداب والفنون وأحرزت نصيبا يقارب الضروريات ، ولكنها متقهقرة فى الموسيقى . ولم نر واحدا من أبناء الأغنياء أولع بهذا الفن وحاول أن يدرسه دراسة تامة تؤهله لخدمة الموسيقى والنهوض بها الى أوج الكمال . ولا يتأتى بلوغ هذه الغاية إلا بدراسة الموسيقى الأفرنجية ، ثم العربية مع نصيب

وما اضطلعت به من أعباء ثقال ، وما بذلت من جهد ونضال ، وما ذللت من عقبات ، وما جابت من فياف وقفار ، وما قضت من ليالى وأوطار ، وما نالت من مجد وفخار ، وما نعمت به من زوج وولد وصحاب ، وما احتملت من وقدات الهجير ولفحات الزمهرير فى طلب رزق أو استجلاء سر ، أو ذياداً عن وطن . وتختمها الشيخوخة وقد توسدت الراحة وأخلدت الى الدعة واعتصمت بالحلم والأناة وارتسمت على وجهها آيات الرضا ، وانبعثت من مقلتها أشعة الهدى . فراحت تتفيأ ظلال الذكرى ، وكأنها فى سنى الطفولة والشباب والرجولة تحيا ! !

ترجمة رسلان عبد الغنى البنى